نيسان/أبريل 2016

الانتماء الإثني في سياق حضري وتداعياته علي السِير الحياتية للأفراد

نوبيّو القاهرة

ميّادة مجدي*

"المصري هو الرجل، والآخر هو الست...

المصري هو الرجل الأبيض، والآخر هو الرجل اللي مش أبيض، أسود...

المصري هو الرجل الأبيض المسلم، الآخر هو غير المسلم...

المصري هو الرجل الأبيض المسلم السني، الآخر هو غير السني... المصري هو الرجل الأبيض اللي لابس بدلة، الآخر هو اللي من غير بدلة...

المصري هو الرجل اللي بيشجع الأهلي...

في دايماً شكل واحد للمصري، افتحي أي كتاب قديم واتفرجي ع الصور، هتلاقي إن الراجل المصري هو اللي لابس بدلة ... م لآخر، الآخر مش موجود عند المصري، الآخر مش حاسس إنه مواطن زي الباقيين. وعشان كدا في مشاكل كتير عند الستات، الأقباط، الشيعة، النوبيين وكل واحد عنده ذوق مختلف"[1]

[1] مقابلة مع م. ش.، أحد أعضاء الاتحاد الديمقراطي للشباب النوبي

* ميّادة مجدي باحثة علوم إجتماعية.

ليس هناك طريقة أفضل لاستهلال هذه الورقة البحثية من ذكر المقطع السابق من أول مُقابلة بحثية تم إجراؤها بالقاهرة في إبريل 2014. وعلى الرغم من أن هذا المقطع يقوم بحصرنا في طردية ثنائية الأطراف دون الأخذ في الاعتبار بمدى تشابك وتعقيد طبيعة التفاعلات المختلفة بين الأفراد، إلّا أنه يُعبر عن حالة اغتراب يُعاني منها كل من هو مختلف ومُقولب.

وهو ما يدفعنا إلى إعادة توجيه النظر للقاهرة باعتبارها "مدينة إثنية"[2] تضم العديد من المجموعات الثقافية واللغوية والعرقية والدينة المختلفة (المهاجرين من مختلف المناطق الجغرافية كالصعيد والمناطق الريفية، والبدو، والنوبيين، واللاجئين ...إلخ). وتتمتّع كل مجموعة بخصوصية (تاريخية أو / وسياسية أو / وثقافية) تُميّزها عن قريناتها. وهو ما يتّضح في حالة النوبيين بالقاهرة على وجه التحديد، حيث نجد أن هناك ثلاث أطروحات أساسية تفرض نفسها عند الحديث عن النوبة. فمن جهة، لا يمكن تجاهل الخصوصية الثقافية للنوبة (ولاسيّما الدراسات الأنثروبولوجية التي تناولت العادات والتقاليد النوبية)، فضلاً عن الصورة الاجتماعية عن النوبيين سواء أكان ذلك في الأدب أو السينما.

ويمكن الإشارة هنا إلى شخصية "بكار" الكارتونية التي شكّلت وعي الكثير عن شخصية النوبي (وإن تم استعمالها فيما بعد كصورة نمطية). كما نجد صورة النوبة في السينما المصرية - كما هو الحال في فيلم "مافيا" - حيث تمثلت صورة النوبة في فريق من الذكور يرتدون الجلباب الأبيض ويرقصون مع فريق من الإناث بجانب بيوت ملونة (كما هو مُبين في الصورة السابقة المستخرجة من الفيلم).

بالإضافة إلى ذلك، فقد تمّ بناء صورة اجتماعيه بعينها للنوبيين في السينما والأدب المصري، اقتصرت هذه الصورة على فئة اجتماعية مهنية مُحددة، من خلال ثلاث مهن محددة يقوم بها النوبي هي: "البوّاب"، و"السفرجي" و"الطبّاخ"، فضلاً عن تسميتهم بال"برابرة"؛ نظراً لأن شخصية النوبي بالسينما والأدب المصري كانت لا تجيد تحدّث العربية جيداً.[3]

[2] Setha M. Low, *Introduction. Theorizing the city*, in Setha M. Low (ed.), *Theorizing the city. The new urban anthropology reader*, Rutgers New Brunswick, University Press, 2005, p. 5-7.
[3] Robert A. Fernea, *Cross-Cultural resettlement administration: an exploration of potential problems of Nubian resettlement*, in Nicholas S. Hopkins et Sohair R. Mehanna (eds.), *Nubian encounters : the story of the Nubian ethnological survey (1961-1964),* Cairo, The American University in Cairo Press, 2010, p. 237-241

وعلى المستوى الأكاديمي - وبالنظر إلى الأدبيات التي تناولت النوبة - فقد تعرضت العديد من الدراسات الإثنولوجية و الأنثربولوجية للخصوصية الثقافية للقُرى النوبيّة من خلال التركيز على عادات وتقاليد هذه القرى، كالدراسة الإثنولوجية التي قام بها بعض علماء الإثنولوجيا بالجامعة الأمريكية بالقاهرة[4] ورسالة الدكتوراه التي قامت بها عالمة الإثنولوجيا "فريديك فوجيل" Frédérique Fogel[5] ثم تم نشرها فيما بعد.

فضلاً عن الدراسات اللغوية التي درست المتغيرات اللغوية التي طرأت على اللغة النوبيّة عقب موجات هجرة النوبيين من الجنوب إلى الشمال واختلاطهم بالتبعية بغير مُتحدثي اللغة النوبية[6]، وأبحاث علماء الآثار الذين ركّزوا عبر حملات اليونسكو على ما تبقّى من آثار النوبة بعد بناء السد العالي والعمل على توضيح ارتباط وتداخل الحضارة النوبية بالحضارة الفرعونية[7].

وأخيراً وليس آخراً هناك بعض علماء الاجتماع الذين قاموا بدراسة الخصوصية الثقافية والاجتماعية للنوبة من خلال تحليل ظاهرة التهجير القسري (الانتقال القسري forced displacement) والنتائج السلبية التي ظهرت في مناطق إعادة التوطين resettlement.

إلّا أنّ هذا لم يمنع وجود فئة أخرى من الأدبيات التي تناولت آثار هجرة النوبيين إلى المدينة من خلال طرح مُصطلح الهوية الحضرية Urban identity للتعبير عن الدور الذي قام به السياق الحضري في الهوية النوبية، ومن أمثلة هذه الدراسات: عالمة الإنثربولوجيا "سوندرا هال" Sondra Hale التي قامت بدراسة مظاهر إعادة بناء الهوية النوبيّة في السياق الحضري بعد هجرة النوبيين إلى الخرطوم.[8]

التهجير القسري والذاكرة الجماعية النوبية

من جهة أخرى، يتشارك النوبيون ماضٍ مشترك يتمثّل في التهجيرات الأربعة التي تعرّضوا لها عقب بناء خزان أسوان وتعلياته المتتالية وبناء السد العالي.[9]

تعود جذور القضية النوبيّة إلى القرن التاسع عشر بعد أن تقرّر بناء خزان أسوان لتحسين طرق الري، وقد عقب بناء خزان أسوان تعليتان بعد ارتفاع منسوب المياه؛ الأولى في 1912 والثانية في 1933، وفي كل مرة كان يتم فيها تعلية الخزان تغرق الأراضي ويضطر أهالي القرى المُتضررة إلى الانتقال القسري لمنطقة أخرى.

---

[4] Nicholas Hopkins et Sohair R. Mehanna (eds.), *Nubian encounters. The story of the Nubian ethnological survey 1991-1964,* Cairo, The Americain University in Cairo Press, 2010

[5] Frédérique Fogel, *Mémoire du Nil. Les Nubiens de l'Egypte en migration*, Paris, Karthala, 1997

[6] Aleya Rouchdy, *Urban and non-urban egyptian nubians: is there a reduction in language skills*, in Nancy C. Dorian, *Language contractions and death*, Cambridge, 1989, p. 259-267

[7] Dominique Vlabelle, "Hatchepsout en Nubie", BSFE 67, octobre 2006, p. 33-50
"Nubie. Cultures antiques du Soudan", le Monde de la Bible 88, juillet-septembre 1994, p. 47-50
"The cultural significance of iconographic and epigraphic data found in the Kingdom of Kerma", IXth international conference of Nubian studies

[8] Sondra Hale, " Nubians in the urban milieu: Greater Khartoum", in *Sudan notes and records*, Vol. 54, 1973, URL: http://www.jstor.org/discover/10.2307/42677926?uid=3738016&uid=2&uid=4&sid=21104127867531 ,p. 57-65

[9] يعتبر فيلم "الناس والنيل" – إخراج يوسف شاهين – هو الفيلم الوحيد الذي تناول تهجير النوبيين من قراهم لبناء السد العالي بعام 1964. ومن أشهر عبارات الفيلم التي يتم اقتباسها من قِبل العديد من النوبيين على مواقع التواصل الاجتماعي، هي"اهتموا بالحجر وسابوا البشر"، والتي قيلت استنكاراً علي حملة اليونسكو بالتعاون مع الحكومة المصرية لإنقاذ الآثار الفرعونية الموجودة بالنوبة من الغرق، والتي قام العديد من مبحوثينا بترديدها أثناء المقابلات.

جاء بعد ذلك الانتقال القسري الرابع - أو ما يُسمى "بالتهجير" والذي يُعتبر الأكثر مأساوية - إثر بناء السد العالي؛ حيث نتج عنه تهجير قُرابة 103 آلاف نوبي "بجُزئي النوبة المصرية والسودانية" وإعادة توطينهم في مناطق أخري.[10]

وعلى الصعيد النظري، ربطت عالمة الاجتماع الفرنسية "فيرونيك لاسايلي جاكوب" Véronique Lasailly-Jacob بين ظاهرة الانتقال القسري والإقتلاع، حيث أطلقت مُصطلح المُجتمعات المُقتلعة Les communautés déracinnées على تلك المجتمعات التي "تنتج من حركات جماعية ومفروضة، حيث يؤثر النزوح أو الانتقال القسري الذي تتعرض له هذه الجماعات على جميع أعضائها من رجال ونساء وأطفال وشيوخ وكافة فئاتها الاجتماعية.

وتظهر هذه الحركات إثر وقوع بعض الأزمات الحادة كحالات الجفاف الشديد، أو بعض حالات الكوارث الطبيعية، أو في حالة التدخل القمعي للدولة لنقل جماعة بعينها. وقد تحدث هذه الحركات داخل حدود الدولة، كما قد تقع من داخل حدود الدولة إلى خارجها، وإما أن تكون مُخططة من قِبل السلطات المحلية أو قد تُشرف عليها وكالات إغاثة".[11]

ويُمكن تطبيق هذا التعريف على الحالة النوبية، إذ وقع أول انتقال قسري للنوبيين إثر بناء خزان أسوان في عام 1902 في إطار سياسات التحديث الزراعية تحت حُكم الخديوي إسماعيل. فقبل بناء الخزان كانت دورات الزراعة تعتمد على الفيضان وبالتالي فري الأراضي غير مُنتظم، وبُناءاً على ذلك تقرّر البدء في أعمال بناء الخزان في عام 1899 بالاعتماد على مُخططات السيد "ويليام ويلكوكس" Sir William Willcoks، بهدف تخزين مياه الفيضان لإعادة استخدامها في الأراضي طوال العام - بصفه شبه منتظمة - في محاولة أولى لتنظيم أعمال الري في مصر.[12]

وقد نتج عن بناء هذا الخزان إنشاء بحيرة اصطناعية بلغ اتّساعها 100 كم.[13] وبعد عدة أعوام ارتفع منسوب مياه البحيرة ممّا أدى إلى غرق 10 قرى نوبية، ثم ظهرت الحاجة في عام 1912 إلى تقوية الخزان من خلال تعلية ممّا أدى إلى غرق 8 قرى أخرى، ومع التعلية الثانية في عام 1933 غرقت عشر قرى نوبية.

---

[10] Hussein M. Fahim, " Egyptian Nubia after resettlement ", *Current Anthropology*, Vol. 14, No. 4, October 1973, pp. 483-485, URL: http://www.jstor.org/stable/2740853

[11] التعريف باللغة الفرنسية:
Les communautés qui sont *issues de mouvements massifs, imposés et collectifs. Ces exodes et déplacements touchent l'ensemble d'un groupe, hommes et femmes, jeunes et vieux, toutes catégories sociales confondues. Ils surviennent dans des contextes de crises aigues caractérisés par une grande violence, des épisodes de sécheresse, des calamités naturelles ou encore en cas d'intervention coercitive de l'Etat. Ce sont des mouvements de proximité, à l'intérieur comme vers l'extérieur des frontières, parfois planifiés par les pouvoirs publics ou encadrés par les organismes d'assistance sur les lieux d'accueil*.
Véronique Lassailly-Jacob, Introduction du numéro “Communautés déracinées dans les pays du Sud", *revue Autrepart*, série des Cahiers des Sciences humaines de l’Orstom , 1998, n°5, p. 5.

[12] H. D., "The Assuan Dam", *Journal of the Royal African Society*, Oxford University Press, Vol 12, No. 46, jan 1913, p. 200-201, URL: http://www.jstor.org/stable/715871?seq=3

[13] Nicholas S. Hopkins, Sohair R. Mehanna, *The Nubian ethnological survey : history and methods*, in Nicholas S. Hopkins et Sohair R. Mehanna (eds.), *Nubian encounters: the story of the Nubian ethnological survey 1961-1964*, The American University in Cairo Press, 2010, pp. 3-5

وفـي كـل مـرة تغـرق فيهـا القـرى كـان يضـطر أهاليهـا للانتقـال و النـزوح إلـى منـاطق أخـرى.[14] وفـي 11 ينـاير 1960 وجّـه الـرئيس السـابق "جمـال عبـد الناصـر" خطابـه لأهـالي النوبـة لـيعلن بـدء القيـام ببنـاء السـد العـالي الـذي سـيقوم بـإغراق أجـزاء كبيـرة مـن أراضـيهم، وإثـر ذلـك كـان مـن المقـرّر نقلهـم إلـى منـاطق جديـدة مُجهـزة، فضـلاً عـن التعويضات التي سيحصلون عليها:

"(...) حينمـا نبحـث السـد العـالي الـذي سـتغرق مياهـه بعـض أجـزاء أو أجـزاء كبيـرة مـن بلادكـم، فإننـا ننظـر إلـى مسـتقبلكم أيضـاً لا علـى أسـاس تشـتيت أبنـاء النوبـة فـي كـل مكـان؛ لأن لكـم التـاريخ الطويـل.. التـاريخ المجيـد الـذي تشـهد عليـه هـذه الآثـار التـي سـنزورها اليـوم، والتـي عشـتم بقربهـا آلاف السـنين، ولكنّـا سـنعمل أيضـاً علـى جمـع شـملكم جميعـاً، كمـا كـان هـذا الشـمل يجتمـع فـي هـذه المنطقـة طـوال السـنين الماضـية أو علـى مر آلاف السنين.

سـيقوم السـيد كمـال حسـين - المشـرف علـى الاتحـاد القـومي - ببحـث جميـع مطـالبكم، وسـتكون لجنـة الاتحـاد القـومي هنـا دائمـاً علـى اتصـال بالاتحـاد القـومي؛ حتـى يمكـن أن نـرى مشـاكلكم دائمـاً أولاً بـأول. وحتـى نسـتطيع أن نحـل هـذه المشـاكل دائمـاً أول بـأول. وإننـا نعتقـد أن عمليـة التهجيـر أو عمليـة النقـل مـن هـذا المكـان سـتكون عمليـة مركّـزة منظمـة مريحـة لكـم جميعـاً؛ لتنتقلـوا مـن هـذه القـرى التـي عشـتم فيهـا إلـى منـاطق جديـدة تشعرون فيها بالسعادة، وتشعرون فيها بالحرية، وتشعرون فيها بالرخاء.

وسـتكون هـذه فرصـة لكـم للاشـتراك أيضـاً فـي النهضـة الصـناعية التـي نسـير فيهـا اليـوم، فلـن يكـون العمـل مقتصـر علـى الزراعـة، ولكـن سـيكون العمـل مقتصـر علـى الزراعـة والصـناعة، وإن شـاء الله أيضـاً ستصرف لكم التعويضات الناتجة عن 54 و 58 في أسرع وقت (...)."[15]

وبمجـرد أن بـدأ العمـل فـي بنـاء السـد العـالي بـدأت عمليـة تهجيـر أهـالي النوبـة مـن جزئيهـا السـوداني والمصـري؛ ففـي الجـزء السـوداني تـم تهجيـر 53 ألـف نـوبي مـن منطقـة "وادي حلفـا" وتمّـت إعـادة تـوطينهم بمنطقـة "خشـم الجربا" – التي تمّت تسميتها فيما بعد ب"حلفا الجديدة" – على بُعد 400 كم شرق "الخرطوم".

أمـا فيمـا يتعلـق بالجانـب المصـري فقـد تـم تهجيـر 50 ألـف نـوبي مـن منطقـة النوبـة إلـى منطقـة "كـوم امبـو" – التـي تم تسميتها "النوبة الجديدة" – على بعد 50 كم شمال "أسوان".[16]

وقـد قـام عـالم الاجتمـاع الفرنسـي "ميشـيل سـيرنيا" Michel Cernea بوضـع إطـار نظـري لتبعيـات الانتقـال القسـري، حيـث رأى أن الانتقـال القسـري قـد أنـتج سلسـلة مـن "الخسـارات" pertes ابتـداءاً مـن خسـارة الأراضـي، والمنازل، والوظائف.

[14] نظراً لعدم وجود معلومات دقيقة حول عدد القرى التي كانت تغرق في كل مرة، فقد تم الاستعانة بالمعلومات التي تم ذكرها في المدونة الرسمية لاتحاد شباب النوبة الديمقراطي علي اعتبار أن العينة العشوائية التي تمت دراستها بهذه الورقة مُختارة من أعضاء (سابقين)لهذا الاتحاد، فضلاً عن المصداقية التي تمتع بها الاتحاد في الأوساط النوبية وعلي وجه الخصوص بعد اشتراك العديد من أعضاءه بالمكتب الاستشاري لحجاج أدول، مُمثل النوبيين بلجنة الخمسين المُختصة بوضع التعديلات الدستورية 2014.

[15] "كلمة ارئيس جمال عبد الناصر في أهالي النوبة 1960/1/11"، *موقع الرئيس جمال عبد الناصر*، الموقع الإلكتروني: http://nasser.bibalex.org/Speeches/browser.aspx?SID=807&lang=fr

[16] Hussein M. Fahim, " Egyptian Nubia after resettlement ", *Current Anthropology*, Vol. 14, No. 4, October 1973, pp. 483-485, URL: http://www.jstor.org/stable/2740853.

الأمر الذي يؤدي فيما بعد إلى ظهور العديد من المشاكل في مناطق إعادة التوطين كالعجز الغذائي، وارتفاع مُعدل الوفيات، وانتشار الأمراض لاسيّما لدى الفئات الأكثر ضعفاً كالأطفال الرُضع والشيوخ، وعلى المدى البعيد يؤدّي إلى التفكك الاجتماعي désagrégation sociale لتلك الجماعات.[17]

وبالتركيز على الحالة المصرية نجد أنّ مجرّد نقلهم من أراضيهم إلى منطقة "كوم امبو" – أو كما أطلق عليها بعض المبحوثين "وادي جهنم" – بدأ النوبيون يعانون من بعض المشاكل التي أشار إليها "ميشيل سيرنيا"؛ إذ لم تكن كل البيوت الحكومية جاهزة بعد لاستقبال كل النوبيين بمنطقة "كوم امبو"، فضلاً عن صغر مساحتها وعدم ملاءمتها للهوية الثقافية للنوبيين - مقارنةً ببيوتهم السابقة - باعتبارها منطقة صحراوية على عكس النوبة القديمة.

إضافةً لكون المنطقة تبعد 15 كم عن نهر النيل مما أثر سلباً على الزراعة، فظهر النقص في إنتاج المنتجات الزراعية وبالتالي عدم الاكتفاء الغذائي، ممّا أدّى بدوره إلى حدوث سوء تغذية لاسيّما لدى الأطفال والرُضَّع.[18]

وقد ذكر أحد المبحوثين "أحد مؤسسي الاتحاد الديمقراطي للشباب النوبي" مثالاً على هذه المشاكل الإيكولوجية التي ارتبطت بمنطقة "كوم امبو": **"قبل التهجير كنّا بنشرب من مايه النيل، بس بعد التهجير بقوا يجيبولنا مايه في تانكات مصدية. عندنا هناك مقابر اسمها مقابر الحضّانات عشان كل اللي ادّفنوا فيها مكملوش تسع اشهر[19]".**

وكنتيجة لهذا الوضع بدأ العديد من النوبيين في الهجرة، وانقسمت هذه الهجرة إلى هجرة داخلية "القاهرة والاسكندرية...الخ" أو هجرة إلى خارج البلاد "دول الخليج، وبعض الدول الأوروبية".

ويُمكن القول في المُجمل أنّ الحراك الجغرافي للنوبين بمصر قد تأرجح بين نوعين من الهجرة: التهجير القسري من أراضيهم إلى المناطق التي قامت الدولة بتوفيرها، والهجرة من هذه الأخيرة إلى الشمال "داخل حدود الدولة أو / وخارجها".

وقد شكّل هذا الماضي المُشترك العناصر الأساسية لبناء ذاكرة جماعية نوبية يتم انتقالها عبر الأجيال، حيث ساهمت هذه الذاكرة الجماعية في بناء فعل جماعي نوبي، فضلاً عن بناء خطاب لا يخلو من الحديث عن "الحنين إلى الماضي" أو استخدام إشكالية "العودة" أو - بصيغة أكثر حقوقية - عن عدم حصول النوبيين المُهجرين على حقوقهم إثر التهجير.

[17] Michel Cernea, « La sociologie de déplacement forcé: un modèle théorique », *revue Autrepart op.cit.*, .p 11-26
[18] Nicholas Hopkins, *in op. cit.*, p. 265
[19] مقابلة مع م. ع.، أحد الأعضاء المؤسسين لاتحاد شباب النوبة الديمقراطي

وفي واقع الأمر فإنّ الحديث عن الفعل الجماعي النوبي - كما سنرى فيما بعد - قد يدفعنا إلى اعتبار بعض مؤسساته كمقاولين للذاكرة الجماعية Entrepreneurs de la mémoire[20]، أي هؤلاء الفاعلين الذين يستخدمون الذاكرة الجماعية في الفضاء العام لبلورة مطالبهم الجماعية.

ولا تقتصر هذه المطالب على المطالب السياسية فقط، بل تمتد لتشمل أيضاً مطالب الاعتراف بهوية مُعينة، أو الحشد لانتزاع حق الاعتراف بصفة عامة. وهو ما يتوافق مع تعبير "جماعة مُتخيلة" ل"بنديكت أندرسون" Benedict Anderson.

التكامُل المؤسسي النوبي: آليات إنتاج فعل جماعي حضري (Urban collective action)

تمّ بناء نمط من الوساطات والدعم في المجتمعات المُستقبلة مُشابه لما كان عليه الوضع في المجتمع الأصلي. فالنوبة تتكون من 44 قرية، وقد قام النوبيون بإنشاء جمعية لكل قرية - في المجتمعات التي هاجروا إليها - تضم أبناء القرية على غرار النمط القائم في النوبة، فضلاً عن وجود نادي نوبي يقوم بتجميع النوبيين في تلك المجتمعات الجديدة، سواء كان ذلك في إطار محلي "كالنادي النوبي بالقاهرة" أو في إطار خارجي "كالنادي النوبي بباريس)"، والذي يُتعبر بمثابة ساحة للّقاءات الاجتماعية، وإقامة بعض الأنشطة كالندوات الثقافية أو الحلقات النقاشية السياسية.

"عشان احنا أقلية، وعشان اتهجرنا من اراضينا في فترات كتيرة من التاريخ، فقررنا نعمل جمعيات تبقي زي النواه(...) فالجمعيات دي كانت عامله زي النواه اللي بنلف حواليها كلنا"[21]

بجانب هذا الكيان تم تأسيس كيانات أخرى، ليس بهدف توفير احتياجات على مستوى التكامل الإجتماعي لكل النوبيين بقدر ما قامت على أهداف سياسية أو ثقافية أو حقوقية: "حركة عائدون، والجمعية المصرية للمحامين النوبيين، واتحاد الشباب النوبي الديمقراطي (والذي سوف نقوم بالتركيز عليه في هذه الورقة البحثية)، Nubian Knights (ذات النشاط الثقافي)...إلخ".

وهو ما أشار إليه عالم الاجتماع الكندي "ريمون بريتون" Raymond Breton عند طرح مفهوم التكامل المؤسسي Institutional Completeness[22] والذي يهدف إلى تفسير مدى اندماج المنتمين إلى مجموعة إثنية معينة أو "مجموعة من المهاجرين في مجموعتهم" في إطار المُجتمع المُضيف لهم receiving society.

[20] Michael Pollak, *L'Expérience concentrationnaire. Essai sur le maintien de l'identité sociale*, Paris, Métailié, 1990

[21] مقابلة مع ب. ع.

[22] وفي هذا السياق فإن تلك المؤسسات تلعب دور كبير في توفير كافة الاحتياجات التي قد يحتاجها الفرد: مؤسسات دينية، مؤسسات لطباعة منشورات وجرائد خاصة بهم وجمعيات خيرية خاصة بهم. وبالتالي فإن هذا التكامل المؤسسي (وبخاصة المؤسسة الدينية) يلعب دور كبير في دمج كل عضو جديد يأتي إلي مُجتمع المُضيف، إلي جماعتها بدل من الإندماج في المُجتمع المُضيف نفسه، من خلال خلق شبكة علاقات بين المنتمين للجماعة فلا يضطر الفرد إلي الاحتياج للتعامل مع أعضاء المُجتمع المُضيف لأن جماعته الإثنية قد وفرت له هذا التكامل المؤسسي.

Raymond Breton, "Institutional Completeness of ethnic communities and the personal relations of immigrants", *American Journal of Sociology*, Vol. 70, No. 2, 1964, pp. 193-205, URL: http://www.jstor.org/stable/2775209?seq=1#page_scan_tab_contents

وقد أرجع البعض ظاهرة التكامل المؤسسي للنوبيين في المجتمعات المُضيفة إلى أنّها رد فعل للانتقال القسري الذي تم التعرّض له، و أن التأسيس والانخراط في منظمات الفعل الجماعي النوبي - فيما بعد - كان بهدف الحفاظ على خصوصية الثقافة النوبية؛ حيث تعتبر هذه الجمعيات بمثابة تعبير عن ما اسمته "فوجيل" عالمة الإثنولوجيا الفرنسية "الهوية المُهاجرة للنوبيين"identité migrante عند وصفها للدور الذي أدّاه الانتقال القسري والهجرة في الهوية النوبية.[23]

كما أشار آخرون أنّ منظمات الفعل الجماعي النوبي هي نتيجة للسياق الحضري الذي يتم فيه إعادة بناء هوية نوبية، بصيغة أخرى فهي تُمثل مدى تمسك النوبيين بانتمائهم الإثني في سياق حضري.[24]

وهنا يجب التشديد في أخذ السياق الجغرافي في الاعتبار وقت التحليل. بمعنى آخر، فإنه عند دراسة الجماعات الإثنية يجب ربطها بالبُعد المكاني الذي تنشأ فيه أو يتم إعادة بناءها فيه.

وترجع أهمية الأخذ في الاعتبار دور البُعد المكاني لقيامه برسم هيكل مُحدّد لطبيعة وشكل التفاعلات بين الأفراد بعضهم البعض وبين المجموعات الاجتماعية بعضها البعض في الفضاء المُشترك، حيث يُشكل البُعد المكاني البنية التحتية للناشطية وللفعل الجماعي الذي يقع في فضاء مُعين والذي قد تتغير ملامحه في فضاء آخر.[25]

ومن هنا يمكننا الجزم أن دراسة الانتماء النوبي في بُعده الجغرافي الأصلي "كوم امبو" سيختلف عن دراسته في بعده الجغرافي الحضري المحلي كالقاهرة "والذي قد يختلف أيضاً عن أي فضاء حضري آخر خارجي كالتواجد النوبي بفرنسا أو الولايات المتحدة الأمريكية".

وأخيراً وليس آخراً، فمّما لا شكّ فيه يُشكل النوبيون إحدى عناصر الحراك الثوري على الصعيد السياسي. وقد ازداد الحديث في المجال العام عن النوبة في محطتين أساسيتين، في عام 2005 بعد أن قام الروائي النوبي "حجاج أدول" بمداخلة في المؤتمر القبطي العالمي الثاني في واشنطن. وقد نُشرت مداخلته فيما بعد تحت عنوان "الصحوة النوبية"، حيث تناول وضع النوبيين بمصر بعد التهجير وإلى أي مدى يُعتبرون مضطهدين مقارنةً بسكان السويس الذين رجعوا بعد تهجيرهم في حرب 1973.[26]

ويرجع انتشار هذه الواقعة إلى اتهام "حجاج أدول" بتدويل القضية النوبية وسعيه إلى المطالبة بانفصال النوبة. وفي عام 2013، قام المجلس العسكري بتعيين "حجاج أدول" كممثل نوبي عن النوبيين باللجنة المُخصصة لتعديل الدستور "لجنة الخمسين"، وهي المرة الأولى التي يتم فيها تعيين مُرشح نوبي عن النوبيين في التاريخ.

---

[23] Frédérique Fogel, *op. cit.*, pp. 14
[24] Sondra Hale, *op. cit*.
[25] Choukri Hmed, "Des mouvements sociaux sur "une tête d'épingle"? Le rôle de l'espace physique dans le processus contestataire à partir de l'exemple des mobilisations dans les foyers de travailleurs migrants", *Politix*, 2008, n. 84, pp. 145-165
[26] علاء الغطريفي، " حجاج أدول يهدي "الصحوة النوبية" إلى رئيس "أقباط المهجر" "، *المصري اليوم*، 2007/8/8، الموقع الإلكتروني: http://today.almasryalyoum.com/article2.aspx?ArticleID=71580

ويُعتبر هذا الحدث السياسي المُحرك الأساسي للقيام بهذه الورقة. فقد قام "حجاج أدول" فور تعيينه بتشكيل مكتب استشاري له مُكون من العديد من العناصر الشبابية المعروفين بـ"النشطاء في المجال النوبي"، تلى ذلك تنشيط حملة "الدستور يا نوبيين"[27] التي نظمت العديد من الندوات والجلسات الحوارية بالعديد من القرى النوبية والمحافظات ذات التجمعات النوبية، فضلاً عن حملة "أيّوا للدستور" التي تم تنظيمها برعاية المكتب الاستشاري ل"حجاج أدول".[28]

بروتوكول البحث

وقد ساهم هذا السياق السياسي بشكل رئيسي - وما حواه في طياته من حشد إيجابي للدستور في 2014 وحشد مضاد في 2012 - في توسيع دائرة مناقشة الاختيارات السياسية للأفراد. وقد بدأت هذه الدراسة بقراءة العديد من المدوّنات النوبية، فضلاً عن الصفحات والمجموعات النوبية على شبكات التواصل الاجتماعي، أي أن عملية البحث حاولت قدر المستطاع الاستفادة من تدفق المعلومات على الانترنت باعتباره مساحة افتراضية تسمح للمُشارك فيها بملاحظة ما يدور من تفاعلات بين الأعضاء المختلفين.[29]

وقد تم قراءة عينة عشوائية من هذه المدونات وصفحات مواقع التواصل الاجتماعي ولاسيّما " Facebook Twitter Tumblr"، أو بمعنى أدق تمت قراءة المدونات المتاحة كخطوة أولية قبل الوصول للمرحلة الثانية من البحث "إجراء مقابلات نصف مُوجهه".

وهنا لاحظنا أن كاتبي هذه المدونات ممن يُلقبون بـ"النشطاء الشباب في المجال النوبي"، وكثير منهم إما أعضاء في كيانات نوبية (تتسم بسيادة فئة الشباب) أوأعضاء بالمكتب الاستشاري ل"حجاج أدول" أو على الأقل ينتمون لنفس الدائرة الناشطية.

---

[27] وقد ظهرت هذه الحملة في 2012 فور اختيار أعضاء اللجنة التأسيسية لصياغة الدستور (أو ما يسمى بدستور الإخوان)، وقامت العديد من الكيانات النوبية بنشر بيانات اعتراضاً على اللجنة التأسيسية للدستور التي لم تأخذ في الاعتبار وضع مُمثل نوبي عن النوبة بين أعضاءها. وقد تفاوت حملات الاعتراض عن هذا الدستور بين حملات للمقاطعة وحملات للتصويت بلا.
ونشطت هذه الحملة مرة أخرى، بعد سقوط حكم الإخوان، وبدء الحديث عن تأسيس لجنة أخرى لتعديل الدستور في 2014، حيث كان العديد من أعضاءها موجودين بالمكتب الاستشاري لحجاج أدول.
الموقع الرسمي للحملة: https://www.facebook.com/nubian.Constitution

[28] أيّو هي كلمة نوبية تعني نعم. وقد صاحب هذه الحملة أغنية – تحمل نفس العنوان – باللغة النوبية والعربية لحث النوبيين على التصويت بنعم للدستور. رابط الأغنية: https://www.youtube.com/watch?v=hx3CMo9U46Q، تاريخ الدخول: 2014/12/28

[29] ويُعرف مجال البحث ودراسة شبكات التواصل الاجتماعي وكل ماهو متاح على مواقع الانترنت بالاثنوجرافيا الرقمية، أو سوسيولوجيا المجتمعات الافتراضية. لمزيد من المعلومات التفصيلية عن هذا المدخل البحثي :

Daniel Miller, Don Slater, *The internet: an ethnographic approach*, Oxford, Berg., 2000.

وهنا تم تتبّع المدوّنات "التي تشاركت جميعها في أن عنوان كل مدونة يؤكد على الانتماء الإثني" الآتيه: "نوبي أنا، Brownies، يساري نوبي، nubian human، ابن النوبة، nobian whisper، bent alnuba".

وتقاسمت جميع هذه المدونات حالة "الحنين إلى الماضي"، و"نمط الحياة قبل التهجير"، و"المطالبة بحق العودة" بالرغم من أن كاتبي هذه المدونات ينتمون لفئة الجيل الثاني أو الثالث ممّن لم يعش تجربة التهجير القسري، هذا الحنين قد صاحبه تعظيم المنظومة القيمية "النوبية" واللغة النوبية، وهو ماجعل "النوبة القديمة" أشبه بالجماعة المتخيلة.[30]

كما تناول كاتبي هذه المدونات العديد من المواقف العنصرية التي يتعرضون لها بالقاهرة "باعتبارها مجتمع تسود به العلاقات المختلطة بين من هو نوبي ومن هو غير نوبي" لمجرد اختلاف لون بشرتهم عما هو سائد بالعاصمة.

وفي واقع الأمر، تعتبر مقالة "فاطمة إمام سكوري" وهي إحدى أعضاء المكتب الاستشاري ل"حجاج أدول" وإحدى الناشطات في المجال النوبي[31] "النوبة انتصار جزئي وكفاح مستمر" هو ما دفعنا لتسليط الضوء على دور الخبرات المُعاشة في اختيارات الأفراد لاسيّما السياسية.

فقد قامت "فاطمه إمام سكوري" بعمل تحليل ذاتي لسيرتها الحياتية، وكيف اكتشفت انتماءها الإثني من خلال عملها كباحثة في "مركز هشام مبارك"، ثم انخراطها في فعل جماعي نوبي شبابي فيما بعد "اتحاد شباب النوبة الديمقراطي"، ثم انضمامها للمكتب الاستشاري ل"حجاج أدول"، ثم تصويتها بـ"لا" للتعديلات الدستورية:

" ربما تكون هذه المسودة من الدستور هي أفضل ما استطعنا الوصول إليه، خاصة فيما يخص المجتمع النوبي، لكنها لا تزال غير مطابقة لأحلام جيلي."

وهو ما دفعنا عند تحضير أسئلة المقابلات للتركيز على المسار السياسي للمبحوثين وربطه بالتصويت على الدستور، حيث لاحظنا بقراءة المدونات وصفحات مواقع التواصل الاجتماعي أن التعديلات الدستورية أدّت إلى حدوث "معضلة التصويت" لدى بعض الشباب النوبي المُعترض على انتهاكات الحكم العسكري؛ أي التصويت بنعم للدستور لمجرد أنه قد ذكر النوبة مما يُعد خطوة في طريق "القضية النوبية"، فضلاً عن أن التصويت بنعم على الدستور يُعد خطوة نحو تحقيق الاستقرار في مصر بصفة عامة، أم التصويت بلا للدستور لمجرد أن الدستور فيه بعض المواد التي تنتهك بعض الحريات؟؟

وبالتالي فإن الطرح الذي نسعى لتقديمه لا يقتصر على إعادة صياغة الأدبيات التي تناولت الهوية الإثنية وحدودها، ومدى اندماج المنتمين لهذه الهوية في ثقافة المجتمع الجديد، كما لا تهدف هذه الدراسة إلى عرض الخصوصية الثقافية لأعضاء جماعة إثنية ما أو دراسة الفعل الجماعي لأعضاء هذه الجماعة، ولكنها تسعى

[30] بالإضافة إلى صفحات مواقع التواصل الاجتماعي، إلا أن التركيز جاء مُنصباً أكثر على المدونات لما كانت تحمله من تجارب شخصية مُعمقة ولحظات مُعاشة، بعكس صفحات الفيس البوك (على سبيل المثال) التي لم تكن تعرض سوا بعض الصور وتعليقات عن أحداث مُعينة.

[31] فاطمه إمام سكوري، "النوبة.. انتصار جزئي وكفاح مستمر"، *مدى مصر*، 25-12-2013، الموقع الالكتروني:
http://www.madamasr.com/ar/opinion/%D8%A7%D9%84%D9%86%D9%88%D8%A8%D8%A9-%D8%A7%D9%86%D8%AA%D8%B5%D8%A7%D8%B1-%D8%AC%D8%B2%D8%A6%D9%8A-%D9%88%D9%83%D9%81%D8%A7%D8%AD-%D9%85%D8%B3%D8%AA%D9%85%D8%B1

بالأساس لفهم كيف يقوم أعضاء جماعة إثنية ما، من الجيل الثاني أو الجيل الثالث، بالتفاوض على حدود ومحتوى خياراتهم الهوياتية في إطار حضري.

بصيغة أخرى، كيف يؤثر السياق الحضري على إعادة تشكيل انتماءات الأفراد، لتصبح خيارات الأفراد في مختلف سِيرهم الحياتية نتيجة لأنماط تفاوض فردية وجماعية مختلفة بناءاً على انتماء إثني في سياق حضري.

الإشكالية البحثية

تقوم هذه الدراسة على إشكالية أن إلى أي مدى تؤثّر الخبرات المُعاشة على تأطير الهوية على مستوى الأفراد والأجيال المنتمية لجماعة إثنية؟ وسوف يتم دراسة هذه الإشكالية من خلال مدخل السيرة الحياتية

مدخل السيرة الحياتية life course perspective

وقد تم استخدام مدخل اقتراب السير الحياتية، وفقاً لعالم الإجتماع الألماني "كارل مايير" Karl Ulrich Mayer الذي يرى أن التحليل السوسيولوجي للسيرة الحياتية يهدف إلى دراسة مُختلف المراكز الاجتماعية التي يتبوأها الفرد بطريقة diachronique و synchronique على مدار حياته. وبالتالي فإن سوسيولوجيا السيرة الحياتية ترتكز على ثلاث ميكانيزمات أساسية:

- أن المجتمع ينقسم إلى مجموعة من النظم الفرعية subsytems or institutionnal fields، كالمسيرة التعليمية، والمسيرة المهنية ... إلخ.
- أن بداخل كل نظام فرعي يوجد مستوى من التفاعلات بين الأفراد.
- أن تفاعلات الأفراد تقع أيضاً بين مختلف النظم الفرعية التي ينتمون إليها.

وبالتالي فإن تحليل السيرة الحياتية للأفراد لا يقتصر على سرد تاريخي لحياتهم، بل على العكس فإنه يهدف إلى دراسة آثار انتماء الأفراد إلى العديد من النظم الفرعية المتفاعلة فيما بينها في إطار هيكل اجتماعي شامل.

ويترتب على ذلك طرح السؤال الآتي: كيف تقوم السياقات الاجتماعية بتشكيل السِير الحياتية للأفراد (how social contexts shape individual life courses)؟ ووفقاً لهذا الطرح فإن السيرة الحياتية مُتعددة الأبعاد، تنتج من انتماء الأفراد إلى العديد من النظم الفرعية في الوقت ذاته.[32]

وقد قام عُلماء اجتماع آخرون باستخدام اقتراب السيرة الحياتية لدراسة الناشطية activism مثل "أوليفيه فيليول"Olivier Fillieule الذي قام بتتبُع آثار الناشطية على السيرة الحياتية للنُشطاء، حيث تؤثر تجربة

[32]Karl Ulrich Mayer, "Whose lives? How history, societies, and institutions define and shape life courses, Research in Human Development", *Research in Human Development*, Vol. 1, Issue 3, 2004, p. 161-187, URL: https://www.mpib-berlin.mpg.de/volltexte/institut/dok/full/Mayer/whoselif/s15427617rhd0103_3.pdf

الناشطية وفقاً ل"فيليول" على ثلاث مستويات في مسيرة الأفراد: "المستوى السياسي (المشاركة السياسية)، والمستوى العائلي (الوضع العائلي) والمستوى المهني".[33]

وعلى عكس "فيليول"، فلن نقوم بدراسة الناشطية النوبية وتأثيرها على السيرة الحياتية لنشطاءها، بقدر ما سيتم تسليط الضوء على دراسة أثر الانتماء الإثني على السيرة الحياتية للمنتمين من خلال النقاط الآتيه: "المستوى السياسي (المشاركة السياسية ولاسيّما في دستور 2014، والانخراط في فعل جماعي ما)، والوضع الأسري بالتركيز على البُعد الجيلي وتأثيره على المستويين المُشار إليهما أعلاه.

منهجية الدراسة

اعتمدت منهجية الدراسة على شقين: المواد الأرشيفية الموجودة على شبكات التواصل الاجتماعي (كما ذكرنا سالفاً)، والمقابلات الشخصية نصف الموجّهه.

وقد بدأت الدراسة بقراءة المدونات الشخصية والحسابات الشخصية على مواقع التواصل الاجتماعي للمبحوثين (ما يُكتب وما يُنشر على حساباتهم في فيس بوك وتويتر). ساعدت هذه القراءة الأرشيفية في صياغة أسئلة المقابلات نصف الموجهه من خلال فهم أوّلي للسيرة الذاتية لكل مبحوث.

وعليه، فقد تم تركيز الدراسة على أعضاء "اتحاد شباب النوبة الديمقراطي" (أغلب أعضاءه هم كاتبي المدونات التي تمت قراءتها قبل إجراء المقابلات) [34] كخطوة أولى في إطار دراسة ظاهرة الفعل الجماعي النوبي ككل في سياقه الحضري، فضلاً عن اعتباره أحد الكيانات النشطة في الوسط "الشبابي النوبي"، بالإضافة للدور المحوري الذي أدّاه أعضاءه في المكتب الاستشاري ل"حجاج أدول" وحملة "الدستور يا نوبيين".

وقد تمّ إجراء 11 مقابلة نصف مُوجهه مع أعضاءه (السابقين) وبالنظر لهذه العينة التي وقع عليها الاختيار يُمكن استخلاص الملاحظات الآتيه:

[33]Olivier Fillieule, Demobilization and disengagement in a life course perspective, to be published in Della Porta D., Diani, M., (forthcoming), Oxford Handbook of Social Movements, Oxford, Oxford University Press, URL: https://www.academia.edu/6324471/Demobilization_and_Disengagement_in_a_life_course_perspective , seen in:15/7/2014

[34] الصفحة الرسمية على الفيس بوك: https://www.facebook.com/%D8%A5%D8%AA%D8%AD%D8%A7%D8%AF-%D8%B4%D8%A8%D8%A7%D8%A8-%D8%A7%D9%84%D9%86%D9%88%D8%A8%D8%A9-%D9%86%D9%88%D8%A8%D9%8A%D9%88%D9%86-%D9%85%D9%86-%D8%A3%D8%AC%D9%84-/%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%BA%D9%8A%D9%8A%D8%B1-101919749853160
المدونة الرسمية: http://y4nubia.blogspot.fr/

- هم جميعاً أعضاء بالاتحاد ماعدا أربعة قد قاموا بتجميد عضويتهم لأسباب "شخصية متعلقة بالزواج، وأسباب سوسيو-نفسية متعلقة بظاهرة ال burn out، أي فقدان بعض الأمل في الفعل الجماعي النوبي، أو الاعتقاد بأن الفرد قد قام ببذل كل طاقته ولم يعد هناك ما يقدمه، أو عدم وجود إثابات كافية للناشطية أو للعمل بالناشطية النوبية"، هم ليسوا بأعضاء في النادي النوبي العام أو بأي فعل جماعي نوبي آخر وقت البحث (إبريل 2014) ولكن هذا لا يمنع مشاركة اثنين من أعضاء المكتب الاستشاري ل"حجاج أدول" في وقت صياغة التعديلات الدستورية، وعضوان آخران قد شاركا في حملة "ايّوا للدستور".
- يتركز متوسط أعمار الأفراد بين 25و 35
- جميع المبحوثين يعملون (ماعدا عضو واحد لا زال طالباً في كلية علاج طبيعي) بالمجالات الآتيه: السياحة، والمصالح الحكومية، والتدريس، والمجال الحقوقي، والهندسي، والأدبي. كما لم يُكمل أيّاً منهم دراساته العُليا سوى عضو واحد في مجال القانون الدولي.

وسيتم تحليل دور الخبرات المعاشه في خيارات الأفراد من خلال تناول الانخراط في فعل جماعي نوبي أولاً، ثم الانتقال إلى المستوى الأسري والمشاركة السياسية.

الانخراط في فعل جماعي نوبي: دراسة حالة اتحاد الشباب النوبي الديمقراطي

كشف العمل الميداني إمكانية افتراض أن الفرد لا يولد نوبياً ولكنه يصبح نوبياً ويبدأ في الانخراط بناءاً على عدة عوامل. وعند الحديث عن الانخراط هنا فإننا نُميّز بين مستويين من الانخراط: المستوى الأول هو بدء الاهتمام بالانتماء النوبي، والمستوى الثاني هو الانخراط في فعل جماعي نوبي.

ويُمكن التفرقة في المستوى الأول بين الانتماء الإثني المُكتشف "أو الهوية المكتشفة" والانتماء الإثني المُتعلم "الهوية المُتعلمة". وأظهر العمل الميداني كيف اكتشف مبحوثينا انتماءهم الإثني إما من خلال التعلُّم كعملية البحث والتثقيف الذاتي لاسيّما مع وجود وسائل الاتصال الحديثة ومواقع التواصل الاجتماعي التي عملت كناقل للمعلومة والمعرفة، أو من خلال الاكتشاف كالدور الذي يلعبه الفن والأدب لاسيّما الأدب النوبي وبعض حملات التعريف بالتراث النوبى.

ويوضح المثال التالي كيف اكتشف أحد المبحوثين ماذا يعني انتماءه الإثني، مصادفاً أثناء مسيرته التعليميه:

"مكنتش اعرف هي ايه النوبة، اسمراني وكل اللي حواليا بيض (...) في الكلية، كنت في قسم نحت، وكان المفروض علينا نعمل ميدالية، فاخترت اشتغل على ميدالية فيها لوجو النادي الأهلي بما انني من مشجعيه المخلصين، بس لقيت ان كل الدفعة بتشتغل على الأهلي، فقلت لأ لازم اتميز عن الباقين. افتكرت بقى وقتها اني نوبي فقررت اعمل حاجة عن النوبة، واكتشفت وقتها يعني ايه النوبة. وطول سنة تانية و تالتة ورابعة في الكلية مكنتش باشتغل غير ع النوبة، كل الديزاين بتاعتي كانت نوبي"[35]

[35] مقابلة مع ب. ع.، أحد الأعضاء السابقين للاتحاد

وبالتالي فمع إدراكه لاختلافه - لوجود سمة مرئية ملازمة له وهي لون البشرة - إلا أن هذا لا يعتبر مؤشر لإعلاء انتماءه الإثني عن أي انتماء آخر، حتى تعرّض لحدث بيوغرافي اكتشف من خلاله ماذا يعني انتماءه الإثني، وهو ما اتفق معه المثال التالي:

"من صغري وانا صحابي بيسألوني دايماً انا ليه سودا، كنت باجاوبهم ان بمنتهي البساطة أهلي وولاد عمامي كلهم سود، وانا شبههم. مكنتش اعرف وقتها انني نوبية (...) لما كنت في ثانوي، مكنتش اعرف هي ايه النوبة، ولا القضية النوبية، كل اللي اعرفه انني نوبية وان اهلي كمان نوبيين، النوبة بالنسبالي كانت ولاد اعمامي واهلي (...) كنت دايماً باقول لاصحابي انني من أصل نوبي بس أنا مصرية بس مكنتش أعرف أي حاجة عن النوبة دي"[36]

وهنا يُمكن التأكيد أن وجود سمة قبلية كما أطلق عليها "إيرفينج جوفمان" attribut tribal معينة ومرئية[37] "لون البشرة" ليس كافياً للانخراط في القضية النوبية، بل ليس بكافياً ليقوم الأفراد بتعريف ذواتهم على أنهم ينتمون إلى جماعة إثنية معينة، وإنما يجب أن يحدث حدث "فردي أو عام" أو مجموعة من الأحداث البيوغرافية évènement biographique والتي تدفع الفرد إلى أن يبدأ بالاهتمام بقضية معينة.

وهنا يظهر التعليم الذاتي autodidaxie كأحد العوامل المؤثرة في الانخراط، بمعنى أن يقوم الفرد بعملية تثقيف وتعليم ذاتي تجاه قضية معينة من خلال القراءة، كما أكد على ذلك أحد الأعضاء السابقين للاتحاد:

"بدأت اهتم بالموضوع في 2008 تقريباً (...) وكل ده حصل لي لما بدأت اقرا واعرف، وبما اني شخصياً بحب القراية، فقريت كتير وبالذات عن النوبة. هنا فهمت ايه هي النوبة، وان في حاجة مش مظبوطة، في ثقافة لازم نحافظ عليها وحقوق لازم نطالب بيها"[38]

وقد لعبت قراءة الروايات دوراً كبيراً لدى المبحوثين في عملية التعليم الذاتي التي نهجوها، حيث أشار خمسة من المبحوثين إلى رواية مُعينة هي التي أدّت دور كبير في نقل ذاكرة التهجير بتفاصيله لهم، وهي رواية "الشمندورة"[39].

"بدأت افهم هي ايه النوبة في ثانوي لما عمي كلمني عن رواية اسمها الشمندورة، هنا بدأت افهم هو ايه التهجير (...) وقررت انني لازم أبدأ اتعرف علي هويتي، اللي ساعدني جدا في الوقت ده هو الادب النوبي. كنت محتاجة لعواطف ومعلومات، والروايات دي رسمت جزء كبير من صورة القري النوبية. بالنسبالي الشمندورة بتتوج الأدب النوبي، الرواية دي مش بس رسمتلي صورة للقري، لأ كمان شكلت جوايا حنين وألم صعب يتمحوا"[40]

---

[36] مقابلة مع ف. س.، عضوة بالاتحاد

[37] Erving Goffman, *stigmate les usages sociaux des handicaps*, Paris, Editions Minuits, 1975, p.12

[38] مقابلة مع م. ش.

[39] وهي رواية قد قام بتأليفها الكاتب النوبي محمد خليل القاسم، ويعرض من خلالها مجموعة من القصص لأهالي النوبة في فترة التهجير.

[40] مقابلة مع ف. س.

" أنـا اكتشـفت النوبـة وانـا بـاقرا الروايـات النـوبي والتـاريخ النـوبي، الروايـات النـوبي غيرتنـي وبالـذات الشـمندورة. قبـل كـدا كنـت فـاكر ان الموضـوع كلـه عبـارة عـن شـوية نـاس غيـروا مكـانهم، بـس الروايـات سـاعدتني انـي اعـيش المعانـاة بتاعـت النـوبيين وقـت التهجيـر. فـي السـتينات، كانـت شـوية ارقـام، كـام اسـرة اتهرجت وكدا، بس الروايات دي حولت الارقام لبشر، واتناولت الجانب البشري والتفاصيل الصغيرة"[41]

"وأنـا بـاقرا الروايـة دي، مقـدرتش اكمـل الفصـل ال22، كـل مـا اجـي اقـراه اقعـد اعـيط، كلمـت مصـطفي ويحـي[42] عشـان اعـرف لـو عرفـوا يقـروه ولا لأ، لقيـتهم زيـي (..) ده الفصـل اللـي بيـتكلم عـن تفاصـيل التهجير"[43]

إلا أنّ عمليـة التثقيـف الـذاتي وحـدها ليسـت كافيـة لتشـكيل النقطـة المحوريـة، والحـدث المـؤثر لبـدء الانخـراط[44] فـي السـيرة الحياتيـة لـدى الفـرد، بـل كانـت هـذه العمليـة مصـحوبة بمجموعـة مـن العوامـل البيوغرافيـة الأخـرى التـي سرّعت من حدوث نقطة محورية من أجل بدء الانخراط.

وهنـا نُشـير إلـى عـاملين قـد سـاعدا علـى تسـريع عمليتـي التثقيـف الـذاتي والانخـراط: تكنولوجيـات المعلومـات والاتصـالات الجديـدة ومـا يمكـن أن نسـميه الإتاحـة البيوغرافيـة biographical availiability[45]، وهـو مـا قـد وجدناه في تحليل المقابلات:

"بعد التخـرج، اشـتغلت كتيـر لمـدة سـنتين، وبعدها كـان عنـدي شـوية وقـت عشـان افهـم ايـه هـي مشـكلتنا، هنـا بـدأت اهـتم بالقضـية النوبيـة (...) بعـد السـنتين دول قـدرت اسـتريح شـوية، يعنـي قـدرت اعمـل upgrade لشـغلي وكـان عنـدي شـوية وقـت فـراغ اننـي ادور علـي حاجـة تانيـة اعملهـا فبـدأت ادور علـي هـي ايـه النوبة"[46]

أمـا فيمـا يتعلـق بوسـائل الاتصـال الحديثـة ولاسـيّما شـبكات مواقـع التواصـل الاجتمـاعي، فمـع بدايـة انتشـار المنتـديات النوبيـة ثـم المـدونات فانتشـار الفـيس بـوك وتـويتر، أصـبح هنـاك مسـاحة "حتـى وإن كانـت افتراضـية" قـادرة علـى تجميـع عـدد أكبـر مـن الأفـراد وتشـجيعهم علـى الانخـراط تجـاه قضـية معينـة نظـراً للانتشـار السـريع لهـذه الصـفحات، فضـلاً عـن اعتبـار مواقـع الانترنـت بمثابـة إحـدى أدوات التعلـيم والتثقيـف الـذاتي لسـهولة الوصـول إليهـا وإتاحتهـا مقارنةً بالكُتب الورقية عند الأجيال السابقة.

"الفكـرة إننـي قـدرت بسـهولة مـن خـلال النـت اننـي اقـرا واكتـب عامـة، كـل ده مكـانش موجـود لجيـل اهالينـا واجدادنا. قبل كدا كان صعب ونادر جدا انك تلاقي كتاب بيتكلم عن النوبة، وعشان كدا احنا محظوظين"[47]

---

[41] مقابلة مع م. ش.
[42] الأول هو أحد الأعضاء السابقين للاتحاد وقد قمنا بإجراء مقابلة معه، والثاني هو عضو سابق بالاتحاد لم نتمكن من اجراء مقابله معه نظراً لأنه قد هاجر للسويد
[43] مُقابلة مع ب. ع.
[44] Andrew Abbott, "A propos du concept de Turning Point", *in* MARC BESSIN, CLAIRE BIDART MICHEL GROSSETTI (Dirs.), *Bifurcations Les sciences sociales face aux ruptures et à l'événement*, La Découverte, coll. Recherches, 2010p. 187-211.
[45] Doug McAdam, *Pour dépasser l'analyse de l'engagement militant*, in Olivier Fillieule (dirs.), *Le désengagement militant*, Paris, Bellin, 2005, p.49
[46] مقابلة مع ب. ع.
[47] مقابلة مع م. ش.

وقد ساعدت شبكات التواصل الاجتماعي أعضاء الاتحاد على تدشين العديد من الحملات سواء كانت حملات توعية كحملة "عزيزي العنصري" التي تم تدشينها على تويتر:

" انا عندي فولورز كتير علي تويتر، فقلت استفيد بالموضوع ده، عملت هاشتاج اسمه عزيزي العنصري، عشان نتكلم عن المواقف العنصرية في مصر، والموضوع مشي بغض النظر عن ان الخلايجة اخدوه عشان يتكلموا عن السنة والشيعة"[48]

ومن جهة أخرى، أُعتبرت صفحات الفيسبوك فضلاً عن مدونات أعضاء الاتحاد بمثابة ناقل للذاكرة الجماعية النوبية، بصيغة أخرى، فقد كان يتم نشر بعض الحقائق التاريخية عن أحداث التهجير، فضلاً عن نشر السيرة الحياتية لعدة شخصيات نوبية تاريخية لاسيّما في إطار حملة "نوبة تود"[49].

وفي بعض الأحيان قد يرجع الانخراط إلى اكتساب الفرد لنوع معين من رأس المال الثقافي وهو رأس المال الثقافي المؤسسي capital culturel institutionnalisé[50]، أي أن مجال دراسة الفرد يساعده على الانخراط في قضية معينة نظراً لطبيعة دراسته وطبيعة عمله.

وهو ما قد وجدناه مع أحد المبحوثين، حيث قامت بتفسير أن أحد الأسباب التي دفعتها للانخراط هو أنها قد درست العلوم السياسية، وأكملت دراساتها العليا في القانون الدولي، ثم عملت بعد ذلك في مجال حقوق الإنسان:

"في 2010، بدأت اشتغل في المركز القانوني بتاع هشام مبارك. اول ورقة بحثية كتبتها كانت عن الحقوق المدنية والاقتصادية وبالاخص الحقوق الثقافية. هنا فهمت بوضوح ايه هي المسألة النوبية وانتهاكات حقوق النوبيين (...) وده أحد الأسباب اللي خلتني اهتم بالقضية النوبية انني باشتغل كباحثة في حقوق الانسان"[51]

وبالتركيز على المستوى الثاني من الانخراط - الانخراط في فعل جماعي نوبي - فإننا نجد إضافة للأسباب السابقة عامل التسييس، الذي يُعتبر أحد عوامل الإنخراط. ويُمكن تعريف التسييس هنا على أنه "القدرة على بناء رأي سياسي ما تجاه قضايا سياسة معينة".[52]

وترتبط نشأة الاتحاد نفسه ببعض المشاكل السياسية على الساحة المصرية، وتحديداً بانطلاق حركة 6 ابريل في 2008، أي أن مبادرة تنظيم تظاهرات معارضة للنظام السياسي القائم آنذاك شجّع على اشتراك ذوي الانتماءات الفرعية باعتبارهم جزء من الكل، مؤكدين في الوقت نفسه عن انتماءهم الفرعي، وهو ما أوضحه أحد مؤسسيه:

---

[48] مقابلة مع ف. س.

[49] وهي حملة قد دشنها الاتحاد الديمقراطي للشباب النوبي من أجل التعريف "بالرموز النوبية، وقد بدأت الفعاليات في 2011/1/21، الموقع الالكتروني: http://y4nubia.blogspot.fr/2011/01/blog-post.html

[50] Pierre Bourdieu, *Les trois états du capital culturel*, in: Actes de la recherche en sciences sociales, Vol 30, novembre 1979, L'institution scolaire, pp.3-6

[51] مقابلة مع ف. س.

[52] Daniel Gaxie, *Le Cens caché. Inégalités culturelles et ségrégation politique*, Paris, Seuil, 1993, p. 66-67

"احنا نزلنا المظاهرات اللي اتعملت في 6 ابريل 2008 ضد النظام، وعشان نميز نفسنا شوية لبسنا الجلبية البيضا النوبي (...) وبعدين قلنا بما اننا شاركنا في المظاهرات دي فليه منعملش كيان يبقي كيان نوبي ضد النظام وبالذات ان المجتمع النوبي مضحوك عليه من اللي بيمثلوه: النظام القديم نجح انه يشتري شوية اشخاص نوبيين. ففكرتنا كانت اننا نبعد عن الناس دي وبالذات اننا لقينا رد فعل كويس من الشباب ع الانترنت. الاول سميناه اتحاد شباب عشان النوبة، بعدين اشتغلنا مع حركة كفاية وحركات تانية زي اشتراكيين ضد التوريث، وعملنا احنا كمان حركة نوبيين ضد توريث السلطة. في 2009، نظمنا مظاهرات قُصاد نقابة الصحفيين ضد الجرايد اللي نشرت كام حاجة عنصرية ضد النوبيين. في 2010 الكل كان مركز علي الانتخابات البرلمانية فنظمنا مظاهرات ضدها. في 2011 بدأنا نوسع الكيان بتاعنا وكنا حوالي 1000 شخص، وده كان عدد كويس بالنسبة لناس ملهاش في السياسة، والالف دول مكانوش بس في القاهرة لا ده في منهم من اسكندرية وبور سعيد. لغاية ما الثورة جت، وطبعاً كلنا كان عندنا أمل. فالوقت ده، قلنا كاتحاد يعني احنا كان عندنا هدف محدد: النظام السياسي، والنظام اهو وقع، دلوقتي بقي هنعمل ايه. سياسياً الملعب كان مفتوح لكل الناس، فقلنا ايه هي الخطوة الجاية. فكان في اقتراح اننا نبدأ نشتغل علي الدستور عشان نقدر ناخد مكاسب حقوقية، وبعدين احنا مش بنطالب بحاجات معقدة يعني، احنا بس عايزين اعتراف لينا اننا نوبيين، اعتراف بإن في ناس اسمهم النوبيين وعندهم لغة مختلفة وثقافة مختلفة. بعد تشكيل اللجنة الاولي بتاعت الدستور اللي كانت في عهد مرسي، عملنا حملة الدستور يا نوبيين. وعملنا مظاهرات ضد الدستور مع اتحاد شباب ماسبيرو ضد الدستور ده (...)"[53]

وقد كان الأمر مُماثل لآخرون، حيث ارتبط الانخراط في عمل نوبي عام بالانخراط في عمل حزبي:

"في 2009 كان عندي حوالي 24 سنة، وقررت انني لازم اعمل حاجة، انا خلاص اتخنقت م الكوكب ده ولازم اعمل حاجة، بقيت عضو بالحزب الشيوعي، وسمعت بالصدفة ان في اتحاد نوبي (...) انضمامي للحزب الشيوعي زود عندي فكرة ان لازم يبقي ليا فعل جماعي وعشان كدا دخلت الاتحاد"[54]

وقد ارتبط أيضاً الانخراط في حالات أخرى بالتسييس ولاسيّما بعد أحداث 25 يناير، التي كانت حافز لدى البعض لبدء الاهتمام بالقضايا السياسية، وما خلقته أحداث 25 يناير من مجال مفتوح دفع بالعديدين للمشاركة السياسية:

"قبل الثورة، مكنتش منخرطة اوي في اي فعل جماعي نوبي. الثورة غيرت افكار كتيرة اوي عندي، ومن هنا دخلت الاتحاد"[55]

[53] مقابلة مع م. ع.
[54] مقابلة مع ب. ع.
[55] مقابلة مع ف. س.

الانخراط وال"نحن" الشبابية الثورية

أظهرت المقابلات ترسيخ لبُعد التمايز الجيلي في خطاب المبحوثين، حيث لم تخل أي مقابلة من المقارنة بين "النحن الشبابية" وبين ما اسموه "الكبار" أو "أهالينا" و"الكيانات النوبية الأخرى المُهيمنة منهم".

وقد ارتكز هذا الانتماء الجيلي من جهة على التمييز بين الجيل الحالي وجيل الأهل الذي تم اتهامه بعدم اهتمامه بنقل أحد دعائم التراث النوبي وهو اللغة النوبية، فضلاً عن عدم اهتمامهم بالمطالبة بحقهم في العودة إلى أراضيهم النوبية أو بالتعويضات التي لم يحصلوا عليها فضلاً عن اندماجهم في المجتمع وإذابتهم فيه[56] :

"كل الاجيال اللي جات قبل جدي مكانش عندها اي مشكلة، هم اتولدوا وعاشوا في النوبة (...) جيل اجدادنا عاش في القاهرة، جيل اباهتنا بقي اتولد في القاهرة. الجيل اللي اتولد في القاهرة وعاش فيها اندمج لغاية ما ساح، وبالتالي كان قليل جدا منهم اللي كانوا بيهتموا بالقضية او بيتكلموا عنها من الجيل ده. انا اهلي اتولدوا في القاهرة فعلاقتهم بالتهجير مختلفة تقريبا مش موجودة عشان معاشوهوش، وبعدين هم اتولدوا في ظروف صعبة فكان كل مجهودهم زي اي حد مصري متكرز علي الدراسة وانهم يلاقوا شغل كويس، فمكانش عندهم وقت انهم يهتموا بالقضية. من ناحية تانية، هم عاشوا في فترة كلها حروب 67 و بعدين 73، الفترات دي خلقت عندهم احساس بالمواطنة زي الباقيين، ان كان عندك مشكلة ولازم تحلها، فأي مشاكل تانية زي النوبة مثلا بالنسبة لمشاكل تانية زي الاحتلال كانت مشكلة صغيرة، فكان التركيز اكبر علي المشاكل الكبيرة، فمكانش هيبقي عندهم بأي قضية زي ماهيتموا بحرب 73 (...) أهلي بيفهموا نوبي وبيتكلموه مع أهاليهم وفي نفس الوقت بيتكلموا عربي ومحاولوش يعلمونا النوبي (...) عشان كدا أنا بالومهم، اعتقد انني كتبت مقالة عن كدا قبل كدا، قلت ان جيل اهالينا ده هيدفع كتير ع اللي عمله (...) كل جيل كان بينقل اللغة للجيل اللي بعده، الموضوع كان شفوي كل ام بتنقل اللغة لعيالها، عيشنا حروب وناس ماتت وناس اتولدت وامراض وفترات هجرة، بس محدش قدر يؤثر في تراث نقل اللغة النوبية ده لغاية اخر 60 سنة، لغاية جيل أهالينا. ده الجيل الوحيد اللي منقلش اللغة زي باقي الاجيال. حتي هم اتعلموا اللغة من اهلهم، وبيتكلموا كويس اوي النوبي، لكن منقالولناش اللغة"[57]

"للأسف، أهلي مكانوش مهتمين يتكلموا نوبي، يمكن عشان بابا كان بيحب اوي عبد الناصر، وبالتالي قرر انه يتعلق بالقائد ده عن اصله النوبي. وبما انني اتربيت علي ايد اب كان فخور انه شارك في حرب 73 وان مصر هي وطنه الوحيد، وزرع جوانا فكرة اننا اننا مصريين بس، فأنا كنت بأعرَّف نفسي علي انني مصري، مصرية وبس"[58]

[56] ومن الجدير بالإشارة هنا افتراض أن التنشئة الإجتماعية قد لعبت دوراً في ظهور هذا الصراع الجيلي، أي أن من تمت تنشئتهم في المجتمع الأصلي (النوبة) ثم هاجروا فيما بعد إلي القاهرة، لم يظهر في حوارهم صراع مع الجيل السابق عليهم بقدر ما ظهر صراع مع السلطة الحاكمة نفسها. فقد كان هناك ثلاثة فقط من مبحوثينا قد وُلدوا بالنوبة ثم هاجروا فيما بعد إلي القاهرة: من أجل استكمال مرحلة التعليم المدرسي (الحالة الأولي)، بعد الانتهاء من مرحلة الجامعة من أجل البحث عن عمل (الحالة الثانية)، ومن أجل قضاء بعد الأعمال المهنية (الحالة الثالثة).

[57] مقابلة مع م. ش.

[58] مقابلة مع ف. س.

وقد علل المبحوثين هذا التدهور بوجود بعض السياقات السياسية[59] (الاستقلال الوطني، وحروب 1956، و1967 و1973 على التوالي) التي أدت إلى تنامي الحس الوطني وجعلت من الصعب ظهور بعض المطالب الفئوية.

ومن جهة أخرى يتركز هذا التمايز الجيلي على التمييز بين الانخراط في الاتحاد كإحدى الكيانات التي ظهرت منذ 2008 اعتراضاً على النظام السياسي ومُطالبةً بتأسيس دولة ديمقراطية قادرة على حماية حقوق الأقليات "وبالتالي لم ينشأ بعد أحداث 25 يناير 2011 في إطار انفتاح المجال العام"، وبين منظمات الفعل النوبي الأخرى الموالية للنظام "كالنادي النوبي العام" والتي يُهيمن عليها الجيل السابق ممّا فسّر عدم انخراط المبحوثين في الكيانات الأخرى لاسيّما "النادي النوبي العام".

"مكانش فيه إلا الاتحاد اللي خرج عن سياسة القطيع، واللي كان ضد مبارك وكان خطابه قايم علي فكرة ان تأسيس دولة ديمقراطية هيحل المشكلة النوبية"[60]

"كان دايماً عندنا فكرة إن الكيانات الرسمية مينفعش نثق فيها، كان سهل جدا علي اي نظام سياسي انه يتكلم ويتفاوض مع الكيانات الرسمية، فكان عندنا مشكلة مع الكيانات الرسمية، وعشان كدا اتجمعنا وعملنا الاتحاد"[61]

وهنا يمكن اعتبار العينة التي تمّت دراستها بمثابة "جيل سياسي" تقاطعت مسيرات أفراده الحياتية والتقت في نقطة مشتركة جعلتهم يكوّنون هذا الجيل.

فهو الجيل الذي استفاد من أدوات الاتصال وتكنولوجيا المعلومات، وجعل من مواقع التواصل الاجتماعي إحدى ريبرتوارات فعله الأساسية، هو الجيل الذي استفاد من عملية التسييس التي خضع لها كل عضو من أعضاءه في مراحل مختلفه كما أشرنا سالفاً، واستفاد منها لبلورة انخراطه في فعل نوبي مختلف عن بقية الكيانات التقليدية لاسيّما "النادي النوبي العام والجمعيات النوبية"، وهو أيضاً من رفض هيمنة جيل الأهل في مجال الفعل الجماعي النوبي، وهو الجيل الذي يسعى من خلال انخراطه الفردي في القضية النوبية أو في فعل جماعي نوبي لنقل التراث النوبي، وهو أيضاً من سعى للاختيار الطوعي للتموضع كأقلية وعمل على حشد التصويت الإيجابي على التعديلات الدستورية.

الوضع الأسري

انطلاقاً من فرضية أن الفرد لا يولد نوبياً ولكنه يصبح نوبياً، فقد كان جلياً في المقابلات وجود اتجاه لنقل الميراث النوبي للأجيال القادمة وذلك لكي يتمكّنوا من تجنّب الوقوع في نفس الخطأ الذي وقع فيه الجيل السابق.

[59] Michel Dobry, *Sociologie des crises politiques*, Paris, Presses de Sciences Po, 2009

[60] مقابلة مع ب. ع.
[61] مقابلة مع م. ش.

وهـذا يـدفعنا للحـديث عـن الـزواج "الارتبـاط" علـى أسـاس نـوبي. وقـد يبـدو هـذا التسـاؤل سـطحي للـبعض إلّا أنّـه يحـوي فـي طيّاتـه السـعي نحـو فهـم إلـى أي مـدى قـد يـؤثر الانتمـاء الإثنـي علـى اختيـارات الفـرد فـي الـدوائر الأكثـر حميميـة، ومـدى تغلغـل الانتمـاء الإثنـي فـي هـذه الـروابط، والتـي علـى أساسـها تظهـر أبعـاد أخـرى فيمـا بعـد كالتنشـئة الاجتماعية ونقل الذاكرة الجماعية للأجيال التالية.

وبالتـالي، فقـد تـم طـرح السـؤال الآتـي علـى كـل المبحـوثين: "هـل تقبـل أن تـرتبط(ي) بفتـاة (شـاب) غيـر نـوبي(ة)؟ وقـد اجـاب 10 مبحـوثين مـن 11 بالسـلب. وقـد أرجـع المبحـوثين هـذا الخيـار إلـى عـدة أسـباب وهـي: اللغـة ودور المرأة في نقل التراث اللغوي للأبناء.

"لأ، عشـان اللـي عملتنـي النـوبي هـي أمـي، واللـي هـتعلم ابنـي هتبقـي أمـه، فهيبقـي أفضـل اننـي اتجـوز مـن نوبية عشان هي اللي هتقدر تعلم ابني النوبي"[62]

وهـذا مـا أكَّـد عليـه أيضـاً آخـرون، أنّ المـرأة النوبيـة تـؤدي دوراً هامـاً فـي نقـل المـوروث الثقـافي مـن عـادات وتقاليـد نوبية إلى الأبناء:

"لأ مـش هـاوافق علـي كـدا (...) بصـي هـوف ي اجـابتين (ضـحك)، الاولـي اننـا احسـن م المصـريين فليـه نتجـوز مـنهم، ودي اجابـة غبيـة، التانيـة بقـي ان عنـدنا ثقافـة مهـددة بالاختفـاء ومحتـاجين نحـافظ عليهـا، فعشـان كـدا، الأم هـي اللـي هـتعلم ولادهـا ازاي يبقـوا نـوبيين، وعشـان كـدا لازم تبقـي نـوبي حتـي لـو مـش بتعرف تتكلم نوبي فهي هتنقلهم العادات النوبية اللي امها علمتهالها"[63]

كمـا لا يقتصـر العامـل المُحـرك لهـذا الاختيـار علـى نقـل المـوروث الثقـافي النـوبي، بـل يشـمل أيضـاً مـدى انخـراط الطرف الآخر في المسألة النوبية:

"لازم تبقـي مسـتعده والا هتتعـب، او لازم تبقـي مهتمـة بالقضـية النوبيـة والا هتتعـب انهـا تعـيش مـع واحـد مبيعملش الا ده، حتي لو كانت نوبية لازم تبقي مهتمة بالقضية"[64]

وإذا كـان المبحوثـون قـد أكـدوا علـى دور المـرأة النوبيـة فـي الأسـرة كحافظـة وناقلـة للمـوروث النـوبي، فـإن المبحوثـات قـد اظهـرنَ توافـق علـى أهميـة التضـامن النـوبي الـذي يتجلّـى مـن خـلال العائلـة، بصـيغة أخـرى، فـإنّ الزواج من نوبي يوفّر درجة عالية من الأمان العائلي لما تتسم به العائلة النوبية من درجة ترابط بين أفرادها.

"الفكـرة ان التـرابط ده مـش موجـود عنـد اي حـد. مـش اي حـد هـيفهم الفكـرة دي ولا اي حـد هـيفهم اننـي لازم احضـر كـل افـراح وجنـايز وعزومـات العيلـة. مـش اي حـد هـيفهم الحاجـات دي الا لـو كـان نـوبي. بصـي هـو مـش ازمـة، اهلـي معنـدهمش مشـكلة، بـس شخصـيا انـا افضـل انـه يبقـي نـوبي (ضـحك). دي مـش عنصرية بس الطبيعة النوبية قايمة علي حياة الجماعة"[65]

[62] مقابلة مع م. ع.
[63] مقابلة مع ب. ع.
[64] مقابلة مع م. ش.
[65] مقابلة مع إ.

" لأ لأ، انا حتي مش قادرة اتخيلني، مش عارفه ليه، بس مش عارفه اتخيلني، يمكن عشان اسباب كتيرة، منها اسباب نفسية مثلا. عشان نبقي واضحين اجنا مش ملايكة يعني، احنا كمان عندنا رجالة زي الزفت، عشان ده مش معناه ان الرجالة النوبيين هم الاحسن وان الباقيين مش اوي. بس السؤال بقي ايه اللي هيطمنك عشان تكملي معاه؟ ان اهله يبقوا ناس كويسين واعمامه وعيلته تبقي عرفاهم كلهم، وده موجود عندنا وبيديكي درجة امان انك تكملي معاه. لكن لو كان مصري، انا مش هابقي عارفه عيلته. اجتماعياً اصلا مش هينفع، لو اتخانقنا في مرة هنعمل ايه؟ لكن عندنا الموضوع مختلف، لو نوبي جه يتجوزني، هنقدر نعرف عيلته كلها من مكالمة واحده بس. بس برضه يعني اللي هيخليني اقبله عشان عيلته هيخليني ارفضه عشان عيلته. الميزه هنا هي الأمان. وده مش معناه ان المصريين وحشين والنوبيين هم الكويسين، انا لما انضحك عليا من راجل كان نوبي، وكان نوبي نوبي يعني مش مخلط"[66]

المشاركة السياسية

عند تحليل المقابلات التي قمنا بها، يُمكن الجزم بأن التعديلات الدستورية قد سببت أزمة سياسية، فقد حققت أحد أهداف أعضاء الاتحاد في أن يتم اختيار عضو نوبي مُمثل للنوبة باللجنة المختصة بالتعديلات، وأن يتم ذكر النوبة بالدستور، كما أكَّد على ذلك أحد أعضاء الاتحاد السابقين "مازن علاء الدين":

"- احنا كمان كان عندنا شروط تعسفية شوية، لو مثلاً كان أعضاء اللجنة كلهم 100 شخص، و 99 منهم نوبي بس متعينين علي أساس إنهم ممثل للمرأة، أو ممثلين لأحزاب سياسية أو مش عارف ايه، مكناش هنوافق، لكن لو المُمثل اللي هيتختاروه هيبقي مُمثل للنوبة، قلنا اننا هنوافق عليه

- ومُمثل للنوبة هنا معناها ايه؟

- مُمثل النوبة هنا هيبقي زي مُمثل الكنيسة،الكنيسة ليها تلات ممثلين: واحد للكاثوليك، وواحد للأرثوذكس وواحد للبروتستانت. يعني ده معناه انه معترف بالتنوع الديني، ليه بقي ميعترفش بالتنوع الإثني؟ (...) الفكرة إننا كنا عايزين مُمثل للنوبيين يتكلم باسمنا.(...) في 2012، بعد التشكيل النهائي للجنة، اعلنا اننا مش هنؤيد المنتج اللي هيطلع من اللجنة دي عشان مشاركناش فيه. احنا كان يهمنا مُمثل للنوبة أكثر منه مُمثل نوبي جاي يُمثل حزب مثلا، عشان ده هيفرق في ازاي الدولة شايفانا.(...) وعشان كدا اشتغلنا علي مقاطعة دستور 2012 (...) لكن في دستور 2014، المجلس العسكري اختار حجاج أدول كمُمثل للنوبيين، ووافقنا عليه ، وهو بعدها عمل مكتب استشاري من 15 ل20 شخص"[67]

وبناءاً على ذلك جاءت بعض المواد التي ذكرت النوبة بطريقة مُباشرة أو غير مُباشرة وهي[68]:

---

[66] مقابلة مع س.
[67] مقابلة مع م. ع.
[68] دستور عام 2014، الموقع الالكتروني: http://www.sis.gov.eg/Newvr/consttt%202014.pdf

مادة 63

يحظر التهجير القسري التعسفي للمواطنين بجميع صوره وأشكاله، ومخالفة ذلك جريمة لا تسقط بالتقادم.

مادة 53

المواطنون لدى القانون سواء، وهم متساوون في الحقوق والحريات والواجبات العامة، لا تمييز بينهم بسبب الدين، أو العقيدة أو الجنس، أو الأصل، أو العرق، أو اللون، أو اللغة، أو الإعاقة، أو المستوى الإجتماعي، أو الانتماء السياسي أو الجغرافي، أو لأي سبب آخر.

التمييز والحض على الكراهية جريمة يُعاقب عليها القانون. تلتزم الدولة باتخاذ التدابير اللازمة للقضاء على كافة أشكال التمييز، وينظم القانون إنشاء مفوضية مستقلة لهذا الغرض.

مادة 236

تكفل الدولة وضع وتنفيذ خطة للتنمية الإقتصادية والعمرانية الشاملة للمناطق الحدودية والمحرومة، ومنها الصعيد وسيناء ومطروح ومناطق النوبة، وذلك بمشاركة أهلها في مشروعات التنمية وفي أولوية الاستفادة منها، مع مراعاة الأنماط الثقافية والبيئية للمجتمع المحلي، خلال عشر سنوات من تاريخ العمل بهذا الدستور، وذلك على النحو الذي ينظمه القانون.

وتعمل الدولة على وضع وتنفيذ مشروعات تعيد سكان النوبة إلى مناطقهم الأصلية خلال عشر سنوات، وذلك على النحو الذي ينظمه القانون.

ومن جهة أخرى، كان هناك بعض المواد التي تضع بعض الحريات محل شك، ولاسيّما المواد التي تناولت محاكمة المدنيين أمام المحاكم العسكرية بعد ازدياد صلاحيات المؤسسة العسكرية في هذا الدستور.

وبتناول السيرة السياسية للمبحوثين "الأحزاب السياسية التي ينتمون إليها، اختياراتهم السياسية في العامين الماضيين، مشاركتهم في أحداث 25 يناير و30 يونيو"، فإننا نجد أن 7 من 11 قد قاموا بالتصويت لدستور 2014. وقد جاءت تعليلاتهم كالآتي:

- هناك من أيّد الدستور لأنه يأخذ في الاعتبار التنوع الثقافي والإثني، ويلزم الدولة بالقيام بمشاريع تنموية في المناطق الهامشية، ورفض هذا الدستور سيكون بمثابة موافقة ضمنية لدستور 2012 الذي قد تمّت مقاطعته من قبل:

"دي المرة الوحيدة اللي قلت فيها نعم، وقلت نعم عشان الدستور ده أحسن من اللي فاتوا (...)ولوكنت قلت لأ هيبقي كأني باقول بطريقة غير مباشرة نعم لدستور الاخوان اللي كان دستور عنصري (...) اما بالنسبة لمادة الجيش، فاحنا كنوبيين كنا ضد المادة دي، من اصل ست اشخاص، حجاج أدول كان واحد

منهم. في النهاية أنا كمصري وكنوبي ليا مكاسب كتير في الدستور فليه بقي اقول لأ وارجع دستور الاخوان، فسياسياً كان لازم اقول نعم"[69]

- ومن جهة أخرى ظهر تيار مؤيّد للدستور لما فيه من "مكاسب" نوبية، فضلاً عن أنّ من يدّعون صفة "الثورة" رحّبوا بالتعديلات وأقرّوها على الرغم من تعارض بعض المواد مع تأييدهم لل"ثورة":

"- حجاج أدول كان من الستة اللي قالوا لأ للمادة بتاعة المحاكمات، في الوقت اللي في 44 واحد وافقوا عليها ومنهم ناس ثورجية. ورفض حجاج للمادة دي كلفنا كتير، الممثل العسكري كان ماشي وراه بأستيكة وبيمسح كل اللي بيقوله حجاج. أنا شخصياً قلتله ملكش دعوة، هيفيد بأيه رفض المادة في حين ان 44 واحد من 50 وافق عليها، كان ممكن يغيب أو يمتنع عن التصويت عشان ميتضيقش عليه في اللجنة.

- بس أنت كنت ضد ولا مع المادة دي؟

- أنا مش هاخلي قناعاتي الشخصية توقف حقوق أهلي وناسي، وإلا كدا هيبقي النفعية؟ ليه أنا لازم ابقي المثالي في عالم سياسي عمره ما هيتغير؟

- بس لو انت بتتكلم عن أهلك وناسك، ماهي المادة دي هتطبق ع الكل

-أه طبعاً، وأنا أول واحد ممكن تطبق عليه كمان (ضحك)، بس ده زي ما كأن حد طلب مني ماوقفش الطلب بتاعه، وفي المقابل هو مش هيوقف بتاعي. بس كدا، وبالذات ان هو اللي معاه سلطات اكتر"[70]

يُمكن تطبيق التفسير الذي قدمه كل من "راسما كاركلينز" و "روجر بيترسون" Rasma Karklins, Roger Peterson عن كيف يقوم الأفراد بحساب خياراتهم في أوقات السياقات السياسية.[71] ووفقاً لتحليلهما فإن الأفراد يخضعون لعمليتين: الحماية والتنبؤ؛ فمن جهة، يلجأ الأفراد إلى تحديد خياراتهم في وقت الأزمات السياسية بعد أن يأخذوا في حسبانهم مصادر الحماية من القمع "العقاب أو القمع الفيزيائي".

ومن جهة أخرى تعتمد أفعالهم على التنبؤ باحتمال نجاح أفعالهم وفشلها مع وجود مصادر حماية. بالتطبيق على الحالة النوبية نجد أنّ تأييد المبحوثين للدستور يرجع إلى المُعادلة الآتية: التنبؤ بهيمنة المؤسسة العسكرية على الساحة السياسية ممّا سيُعرقل الحصول على "مكاسب" في خارج إطارها، مصدر الحماية سيكون بالتالي الموافقة على الدستور "من خلال عمليات الحشد له" مما سيضمن الحصول على هذه "المكاسب" حتى وإن كان ذلك على المستوى الدستوري.

[69] مقابلة مع ر. ي.
[70] مقابلة مع م. ع.
[71] Rasma Karklins, Roger Peterson, "Decision calculus of protesters and regimes: Eastern Europe 1989", *The Journal of Politics*, Vol. 55, No. 3, August 1993, p. 588-614, URL: http://journals.cambridge.org/action/displayAbstract?fromPage=online&aid=6284212&fileId=S0022381600075800

إلّا أنّ هذا لم يمنع وجود بعض المبحوثين الذين قد اعترضوا على هذا المنطق، وقاموا برفض هذا الدستور لعدم وجود مصداقية كافية في قدرة المؤسسة العسكرية على تنفيذ ما قدمته من وعود دستورية.

وقد كانت الحالة الأكثر وضوحاً هي "فاطمة إمام ساكوري" التي كانت عضوة المكتب الاستشاري ل"حجاج أدول"، وشاركت بنفسها في صياغة مواده، وعلى الرغم من ذلك قاطعته كما ذكرنا سالفاً.

الخاتمة

ونخلص إلى أنّه من الخطأ الحديث عن النوبيين ك"هوية" إثنية متجانسة يخضع جميع المنتمين إليها لمنظومة قيمية واحدة يتمّ توارثها عبر الأجيال، وإنّما يجب التفرقة بين الانتماء الإثني الذي يتم بناءه في سياقه الأصلي، وبين الانتماء الذي يتم إعادة بنائه في السياق الحضري، لكي يتسق مع سياسات الاندماج في المُجتمع المُضيف، حتى وإن كان هذا المُجتمع هو المنشأ.

وبناءً على ذلك فإن التنشئة الاجتماعية التي يخضع لها المنتمين إلى هوية إثنية حضرية مُعينة تؤدي دوراً في بناء السِير الحياتية للأفراد.

وهنا تجدر الإشارة إلى البُعد الجيلي، وما يُظهره كل جيل من خصائص. ومما لا شك فيه عدم وجوب تعميم المؤشرات التي تم تحليلها واستخلاصها في هذه الدراسة، إلا أن هذا لا يمنع من تسليط الضوء على "اتحاد الشباب النوبي الديمقراطي" لفهم ميكانيزمات عمل جيل سياسي ذو انتماء إثني.

كما يُمكن إدراك لحظتين أساسيتين في هذه الدراسة:

- اللحظة الأولى وكيف عمل هذا الجيل السياسي - في سياق حضري مُعين ومن خلال انخراطه الفردي في القضية النوبية أو الجماعي في فعل جماعي نوبي - للسعي وراء بلورة خطاب - مُستفيداً من الفُرص التكنولوجية والسياسية التي يتمتع بها - لجعل الناشطية الشبابية النوبية أكثر ظهوراً. وهو ما تمت ترجمته فيما بعد عندما قام أعضاء الاتحاد بدور كبير في المكتب الاستشاري ل"حجاج أدول" و"حملة الدستور يا نوبيين". وهي اللحظة الثانية التي يمكن وصفها بالاختيار الطوعي للتموضع كأقلية من خلال السعى لبلورة مطالب خاصة بالنوبيين وذكرها في التعديلات الدستورية الأخيرة.

وعلى صعيد آخر، فإن دراسة الحالة النوبية بالقاهرة تفتح الباب أمام المزيد من الدراسات التي تربط بين علم اجتماع الذاكرة الجماعية وعلم اجتماع الحركات الاجتماعية وعلم اجتماع الهجرة.

بمعنى آخر، فإن هذه الدراسة تعتبر نواة لدراسات تالية تسعى إلى الأخذ في الاعتبار عامل الذاكرة الجماعية والعامل الجغرافي لنشأة فعل جماعي (أو أكثر)، أي دراسة الإطار الحضري كأداة تحليلية لفهم الدور الذي تقوم به الذاكرة الجماعية - التي تمّ بناؤها من قِبل أعضاء جماعة إثنية مُعينة - في نشأة فعل جماعي (أو أكثر) لهذه الجماعة الإثنية.

فـي هـذه الدراسـة لـم نقـم بدراسـة ريربتـوار فعـل الحركـة وآليـات تعاملهـا مـع السـلطة أو / والمجتمـع بقـدر مـا قمنـا بتسليط الضوء على الفرد في الحركة، وكيف يؤثر انتماء الإثني على انخراطه في الفعل الجماعي نفسه.

وبالتـالي فـإن هـذه الدراسـة تفـتح البـاب أمـام العديـد مـن الدراسـات التاليـة لتقـوم بإدخـال مُحـددات أخـرى لـديناميكيات الفعـل الجمـاعي النـوبي فـي القـاهرة: ك"العنصـر الجيلـي" و"العنصـر الجنـدري" فضـلاً عـن آليـات عمـل المجموعـة الاجتماعية مع السلطة ومع باقي المجموعات التي تقوم بتعريف نفسها كفعل جماعي نوبي.

قائمة المراجع

- Aleya Rouchdy, *Urban and non-urban egyptian nubians: is there a reduction in language skills*, in Nancy C. Dorian, *Language contractions and death*, Cambridge, 1989
- Andrew Abbott, "A propos du concept de Turning Point", *in* MARC BESSIN, CLAIRE BIDART MICHEL GROSSETTI (Dirs.), *Bifurcations Les sciences sociales face aux ruptures et à l'événement*, La Découverte, coll. Recherches, 2010p. 187-211.
- Choukri Hmed, "Des mouvements sociaux sur "une tête d'épingle"? Le rôle de l'espace physique dans le processus contestataire à partir de l'exemple des mobilisations dans les foyers de travailleurs migrants", *Politix*, 2008, n. 84, pp. 145-165
- Erving Goffman, *stigmate les usages sociaux des handicaps*, Paris, Editions Minuits, 1975
- Daniel Gaxie, *Le Cens caché. Inégalités culturelles et ségrégation politique*, Paris, Seuil, 1993
- Doug McAdam, *Pour dépasser l'analyse de l'engagement militant*, in Olivier Fillieule (dirs.), *Le désengagement militant*, Paris, Bellin, 2005, p.49
- Frédérique Fogel, *Mémoire du Nil. Les Nubiens de l'Egypte en migration*, Paris, Karthala, 1997
- Karl Ulrich Mayer, "Whose lives? How history, societies, and institutions define and shape life courses, Research in Human Development", *Research in Human Development*, Vol. 1, Issue 3, 2004, p. 161-187, URL: https://www.mpib-berlin.mpg.de/volltexte/institut/dok/full/Mayer/whoselif/s15427617rhd0103_3.pdf
- H. D., "The Assuan Dam", *Journal of the Royal African Society*, Oxford University Press, Vol 12, No. 46, jan 1913, p. 200-201, URL: http://www.jstor.org/stable/715871?seq=3

- Hussein M. Fahim, " Egyptian Nubia after resettlement ", *Current Anthropology*, Vol. 14, No. 4, October 1973, pp. 483-485, URL: http://www.jstor.org/stable/2740853
- Michel Cernea, « La sociologie de déplacement forcé: un modèle théorique », *revue Autrepart op.cit.*, .p 11-26
- Michel Dobry, *Sociologie des crises politiques*, Paris, Presses de Sciences Po, 2009
- Nicholas S. Hopkins et Sohair R. Mehanna (eds.), *Nubian encounters : the story of the Nubian ethnological survey (1961-1964),* The American University in Cairo Press, 2010
- Olivier Fillieule, Demobilization and disengagement in a life course perspective, to be published in Della Porta D., Diani, M., (forthcoming), Oxford Handbook of Social Movements, Oxford, Oxford University Press, URL: https://www.academia.edu/6324471/Demobilization_and_Disengagement_in_a_life_course_perspective
- Norbert Elias, *Logiques de l'exclusion, enquête sociologique au coeur des problèmes d'une communauté*, Paris, Fayard, 1997
- Pierre Bourdieu, *Les trois états du capital culturel*, in: Actes de la recherche en sciences sociales, Vol 30, novembre 1979, L'institution scolaire, pp.3-6
- Rasma Karklins, Roger Peterson, "Decision calculus of protesters and regimes: Eastern Europe 1989", *The Journal of Politics*, Vol. 55, No. 3, August 1993, p. 588-614, URL: http://journals.cambridge.org/action/displayAbstract?fromPage=online&aid=6284212&fileId=S0022381600075800
- Raymond Breton, "Institutional Completeness of ethnic communities and the personal relations of immigrants", *American Journal of Sociology*, Vol. 70, No. 2, 1964, pp. 193-205, URL: http://www.jstor.org/stable/2775209?seq=1#page_scan_tab_contents
- Stéphane Chevallier et Christiane Chauviné, *Dictionnaire Bourdieu*, Paris, Editions Ellipses

- Sondra Hale, " Nubians in the urban milieu: Greater Khartoum", in *Sudan notes and records*, Vol. 54, 1973, URL: http://www.jstor.org/discover/10.2307/42677926?uid=3738016&uid=2&uid=4&sid=21104127867531 ,p. 57-65
- Véronique Lassailly-Jacob, Introduction du numéro "Communautés déracinées dans les pays du Sud", *revue Autrepart*, série des Cahiers des Sciences humaines de l'Orstom , 1998, n°5

عن الكاتب

ميّادة مجدي باحثة علوم إجتماعية، حاصلة علي درجة الماجستير في 2014 من جامعة باريس 10 في تخصص علم الإجتماع السياسي المُقارن، كما تخرجت من قسم العلوم السياسية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة 2013. تقوم حالياً بدراسة الهُوية الحضري والفعل الجماعي للنوبيين بالقاهرة. تدخل اهتمامتها البحثية في إطار: الدراسات الإثنية، علم اجتماع الفن و الرحكات الإجتماعية.

عن برنامج دعم البحث العربي – الدورة الثانية

تسعى مبادرة الإصلاح العربي إلى تشجيع وتعزيز مبادرات بحثية جديدة وتكوين فرق عمل تعمل على بلورة سياسات وإعداد بحوث. تقدم مبادرة الإصلاح العربي تمويلا متواضعا للباحثين في المنطقة العربية من خلال برنامج دعم البحوث العربية. يهدف البرنامج إلى تنمية مهارات البحث لدى الجيل الجديد منعلماء الاجتماع والعلوم السياسيّة والسياسات العامة والاقتصاد السياسي في الدول العربية. و تعطى الأولوية للبحوث المبتكرة والمستندة إلى الأدلة العلمية، والمرتبطة بالتحولات الديمقراطية العربية لا سيما في تونس ومصر وليبيا واليمن وسوريا

عن مبادرة الإصلاح العربي

تأسست "مبادرة الإصلاح العربي" عام 2005 كشبكة مستقلة من مراكز ومعاهد بحثية عربية وأروبية وأمريكية. ورسخت المبادرة منذ تأسيسها انطباعاً قوياً في الأوساط البحثية ودوائر صنع القرار باعتبارها منتجة للمعرفة، من خلال الأبحاث، وبناء مجموعات عمل في دول مختلفة، وتطوير شبكة واسعة من الباحثين والنشطاء ممن يتقاسمون الرؤى الإصلاحية.

مبادرة الإصلاح العربي، نيسان/أبريل2016

www.arab-reform.net

© 2016 مبادرة الإصلاح العربي تحت رخصة المشاع الإبداعي، اضغط لقراءة الرخصة الكاملة

contact@arab-reform.net